

المقعد الذي تركته فارغاً

قصة مستوحاة من مقال الأستاذة هدى بركات، المستشارة النفسية والأسرية:

«بين ما نشعر به وما نعرفه»

من الذاكرة والألفة إلى بناء المعنى وصنع الاختيار

=====

وقفت مريم عند باب المركز الثقافي، وأحست بشيء أربكها.

الفناء الصغير، وشجرة الليمون، والمقعد الخشبي قرب النافذة... بدا المكان مألوفاً على نحو غريب، مع أنها جاءت إليه للمرة الأولى.

همست:

- كأنني كنت هنا من قبل.

لكنها لم تستطع استحضار زيارة واحدة. بقي الإحساس قوياً، وبقيت الذاكرة صامتة.

كانت تحمل في حقيبتها دفترًا أزرق، جمعت فيه قصصاً كتبتها خلال سنوات. قبل أسبوع، قرأت إعلاناً عن لقاء للكاتب الهواة، فأرسلت إحدى قصصها إلى صديقته نادية، التي تشارك في تنظيمه، وسألته إن كانت تصلح للقراءة أمام الحاضرين.

لم يصلها جواب.

في اليوم الأول قالت لنفسها: «لعلها مشغولة». وفي الثاني بدأت تستعيد عبارات قصتها وتجدها ضعيفة. وفي الثالث استقرت على تفسير ألماها: «قرأتها ولم تعجبها، وهي لا تعرف كيف تخبرني.»

ومنذ تلك اللحظة، لم تعد تنتظر ردًا بقدر ما تنتظر تأكيداً لحكم أصدرته على نفسها.

ومع ذلك جاءت إلى المركز. قالت إنها ستستمع فقط، وستبقي الدفتر داخل الحقيبة.

كانت امرأة مسنة ترتب الكراسي في القاعة. حين رأت مريم تتردد عند الباب، أشارت إلى مقعد في الصف الأول.

قالت مريم:

- أفضل الجلوس في الخلف.

ابتسمت المرأة:

- كما تشائين. هل ستقرئين شيئاً اليوم؟

شدت مريم يدها على حزام الحقيبة.

- لا أظن أن ما أكتبه يستحق.

- هل قرأته على أحد؟

- أرسلته إلى صديقة... ولم ترد.

توقفت المرأة عن ترتيب الكراسي، ثم سألت بهدوء:
- هل قالت إنه لا يستحق؟

رفعت مريم عينيها:
- لا، لكنها...

ولم تكمل.

جلست المرأة على طرف أحد المقاعد.
- الانتظار متعب. أحياناً نملاً الصمت بالكلام الذي نخشاه.

بقيت العبارة مع مريم، حتى بعد أن انشغلت المرأة باستقبال القادمين.

أخرجت هاتفها. فتحت المحادثة، وقرأت رسالتها مرة أخرى. كانت قصتها هناك، وتحتها سؤالها. أما الجملة التي ظلت تسمعها طوال الأيام الماضية - «أنت لا تجيدين الكتابة» - فلم تكن مكتوبة في أي مكان.

فتحت الدفتر، فسقطت منه ورقة قديمة مطوية.

كانت ملاحظة من معلمتها في المرحلة الثانوية، احتفظت بها بين أوراقها منذ سنوات:

«لديك حسن جميل بالتفاصيل، لكن النهاية تحتاج إلى عمل.»

تذكرت مريم كيف عادت يومها إلى البيت خائبة. وفي كل مرة روت فيها الحادثة لنفسها، اختصرتها في عبارة واحدة:
«حتى معلمتي لم يعجبها ما كتبت».

قرأت الملاحظة مجدداً.

لم تصبح القصة القديمة أفضل فجأة، ولم تختف حاجتها إلى التعلم، لكنها انتبهت إلى الكلمات التي أسقطتها من ذاكرتها طويلاً: «لديك حسن جميل بالتفاصيل».

مررت أصابعها فوق الورقة، ثم أعادتها إلى الدفتر برفق.

وصلت نادبة قبل بداية اللقاء بدقائق، تبدو مرهقة. وما إن رأت مريم حتى أسرع نحوها.

- سامحيني على التأخر. مرضت أُمي هذا الأسبوع، واضطربت أيامي كلها. رأيت رسالتك، لكنني لم أقرأ القصة بعد.

شعرت مريم بالارتياح، ثم بشيء من الحرج. كانت قد أمضت ليالي تناقش رأياً لم تُبده صديقتها أصلاً.

سألته عن أمها، وجلستا تتحدثان قليلاً.

وقبل أن تنهض نادبة، أشارت إلى الدفتر:
- هل ترغبين في القراءة اليوم؟

عادت الرجفة إلى يدي مريم.

كان من السهل أن تقول: «في مرة أخرى». وكانت تعرف أن المرة الأخرى قد تظل بعيدة.

سألت:

- وهل يجب أن تكون القصة مكتملة تمامًا؟

- يكفي أن ترغبي في مشاركتها. وبعدها تسمعين ما قد يساعدك على تطويرها.

نظرت مريم إلى الصفحة الأولى. ما زالت تجد بعض الجمل ثقيلة، وما زالت تخشى أن يتشتت انتباه الحاضرين.

لكنها قالت:

- سجّلي اسمي.

حين نوديت، مشت إلى المقدمة وهي تسمع خفقان قلبها. تعثرت في السطر الأول، فتوقفت، وشربت قليلاً من الماء، ثم بدأت من جديد.

لم يصغ الجميع بالطريقة نفسها. أحد الحاضرين نظر إلى هاتفه، وامرأة قرب النافذة تابعتها باهتمام. وبعد القراءة، أثنى شاب على أحد المشاهد، واقترحت أخرى اختصار النهاية.

دوّنت مريم الملاحظة.

وللمرة الأولى، استطاعت أن تسمع أن نصها يحتاج إلى تعديل، من دون أن تسمع معها أن وجودها كله كان خطأ.

عند خروجها، توقفت أمام المقعد الخشبي في الفناء. عاد إليها الشعور الغريب بالألفة، لكن مصدره ظل غامضاً.

جلست قليلاً، وفتحت دفترها على صفحة جديدة.

كتبت:

«لم أعرف لماذا بدا لي المكان مألوفاً. ولم أعرف مسبقاً كيف سيتلقى الناس قصتي. لكنني أعرف الآن أنني قرأتها.»

ثم أضافت موعد اللقاء المقبل إلى هاتفها.

هذه المرة، اختارت أن تجلس في الصف الأول.

انتهت